التعليم في الجزائر خلال فترة الإحتلال

✍بن ترزي خير الدين
بالمدرسة العليا للأساتذة – بوزريعة

مقدمـــة :

كان التعليم ولا يزال الأساسي الحقيقي لأي تقدم أو تطور في حياة الشعوب والأمم، فهل كان التعليم الفرنسي في الجزائر يرمي إلى ازدهار الإنسان الجزائري ؟ إننا نعلم أن الإدارة الفرنسية قد فتحت عددا من المدراس، إلا أنه لم يتحقق أي تقدم من دلك، وفي نفس الوقت عملت فرنسا منذ الغزو على محاربة الثقافة العربية، فقضت على المراكز الثقافية المزدهرة في الجزائر، كذلك أغلقت نحو ألف مدرسة ابتدائية وثانوية وعالية كانت موجودة في الجزائر في سنة 1830 وقد حمل أحد الكتاب الفرنسيين ويولار فرنسا مسؤولية تأخر الجزائر في القرن العشرين، إذ يقول : " لقد أشاع دخول الفرنسيين إلى الأوساط العلمية والأدبية، اضطرابا شديدا فهجر معظم الأساتذة الأفذاذ مراكزهم هاربين ولقد كان يقدر عدد الطلاب قبل 1830 م ب 15000 طالب أو يزيدون ومهما يكن من أمر فلم ينجح من المدراس القديمة سوى عدد قليل من المدارس الصغيرة، وحرمت أجيال عديدة من التعليم "

فهل كانت المراسيم والقوانين الّتي صدرت – بعد الاحتلال – بشأن التعليم بالجزائر قد حققت الغايات المنشودة بالنسبة للجزائريين ؟ أم أنها كانت عكس ذلك ؟

وللإجابة عن هذا السؤال اعتمدنا على الخطة التالية :

- وضعية التعليم في الجزائر قبيل مجئ الفرنسيين
- الطرق المستعملة لتطبيق السياسة الفرنسية .
- أهداف الفرنسيين من سياستهم التعليمية .

- نتائج هذه السياسة .
- الإستنتاج .

وضعية التعليم في الجزائر قبيل مجيء الفرنسيين

لم يكن العثمانيون يهتمون في الجزائر بميدان التعليم، فلم تكن لهم وزارة للتعليم، ولا أية مؤسسة مكلفة بهذا القطاع، بل ترك الميدان مفتوحة للأفراد والجماعات يقيمون ما يشاءون من مؤسسة دينية أو تعليمية .

وقد قامت بهذا الدور الزوايا والمساجد، التي كان يتعلم بها أبناء الجزائريين اللغة العربية وحفظ القران الكريم، إلى جانب أخرى كالعلوم الشرعية وقواعد اللغة والنحو والسير والأخبار وغير ذلك، وإلى جانب هاتين المؤسستين، كانت العائلات تقيم المدارس لأبنائها في القرى والدواوير، وتكلف معلمين بتعليمهم وتوفر لهم كل وسائل عيشهم .

و هكذا كان انتشار التعليم خلال العهد العثماني انشار طيبا، حتي غطي المدينة والقرية والجبل والصحراء [1] ويعترف الجنرال " فاليزي " عام 1834 م بأن وضعية التعليم في الجزائر كانت جيدة قبل التواجد الفرنسي، لأن " كل العرب (الجزائريين) تقريبا يعرفون القراءة والكتابة، إذ تنتشر المدارس في أغلبية القرى والدواوير " [2]

و مما يؤكد المستوى التعليمي الذي كان سائدا في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، والذي يعود الفضل فيه إلى الزوايا والأفراد، ما صرح به " ديشي "–المسؤول عن التعليم العمومي في الجزائر- في قوله: كانت المدارس بالجزائر والمدن الداخلية، وحتى في أوساط القبائل كثيرة ومجهزة بشكل جيد، وزاخرة بالمخطوطات ففي مدينة الجزائر هناك مدرسة بكل مسجد، يجرى فيها التعليم مجانيا، ويتقاضي أساتذتها أجورهم من وأردات

---

[1] -Charles (R.A) Les Algériens Musulmans et le France , P.U de France : paris,1968 , p : 318

[2]- عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، (1830 – 1900) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985 ص: 206

المسجد، وكأن من بين مدرسيها أساتذة لامعون تنجذب إلى درسهم عرب القبائل [1]

الطرق المستعملة لتطبيق السياسة الفرنسية :

اتبع الفرنسيون أسلوبين في ذلك هما، اللغة، يعني بقاء الشخصية الوطنية الجزائريين، التي تناقض حضارتهم وتعرقل أهدافهم ومشاريعهم، لهذا عملوا للقضاء عليها بمختلف الطرق ولتفكيك المجتمع الجزائري وفصله عن ماضية ليسهل ضمه وابتلاعه .

وكانت الميادين التي خاضتها السلطات الفرنسية للقضاء على اللغة العربية هي ثلاث :

- المدراس
- الصحافة
- الكتب والمخطوطات

أ- المدارس :

استولى الفرنسيون على بعض البنايات المدرسية، بدعوى استغلالها وفق حاجاتهم، وحولوها إلى مكاتب إدارية مدنية أو عسكرية وهناك مدارس اضطرت إلى غلق أبوابها بعد مقتل معلميها في المعارك، أو لهجرتهم إلى مناطق أمنة بعيدة داخل الوطن أو خارجه ذلك أن السلطات الفرنسية كانت تعتبر المعلم الجزائري خطرا يجب محاربتها لأنه الحامل والحافظ للمقومات الشخصية للشعب الجزائري .

لهذا عملت على غلق الكثير من المدارس وطرد معلميها، لتحويل المجتمع الجزائري إلى مجتمع أمي وسنت قانونا يمنع تنقل بهدف اكتساب العلم والمعرفة في الداخل والخارج " وباسم سياسة الدمج ثم العلمنة حددت المدراس القرانية بدقة، ورقبت مدارس الزوايا وأغلق الكثير منها ... وتناقص

[1]- شارل (ر . أجيرون)، تاريخ الجزائر المعاصرة، (1830- 1900)، ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر 1982، ص 106 و107

عدد معلمي القران، ومنذ ذلك الحين تقهقرت معرفة اللغة العربية الأدبية، إذ كانت لا تكاد تدرس ..[1]

و جاء في أحد التقارير الفرنسية (للجنة القروض الاستثنائية سنة 1847) : لقد تركنا المدارس تسقط وشتتناها، لقد أطفات الأنوار من حولنا، أي أننا حولنا المجتمع المسلم الى مجتمع أكثر جهلا وبربرية مما كان عليه قبل معرفتها " .

و في المدن الكبرى منع تعليم اللغة العربية والقران الكريم، أما في الجهات التي لم تمس فيها مدارس القرأن البسيطة، فقد منع عليها فتح أبوابها خلال أوقات عمل المدارس الفرنسية، حتي لا تمنع عنها التلاميذ .

و عندما استوليت الاحتلال على الأوقاف حرمت المساجد والمدارس من موردها الأساسي الذي كان يمونها، فتضاءل مردودها، ثم انعدم في جهات كثيرة، إلا في الحالات التي تدخل فيها السكان للتكفل بحاجيات المعلم الذي أصبح يتعاقد مع القبلية أو الدوار فيما يدعى " مشارط "

و في عام 1870 كان هناك 36 مدرسية ابتدائية عربية فرنسية و1300 تلميذا، ومعهدان عربيان فرنسيان، وثلاث مدارس دينية إسلامية، وعملت الجمهورية الثالثة على الحد منها وتقليصها فانخفضت الى 16 مدرس عام 1882 م، وحاول جول فيري أن يؤسس 15 مدرسة وزاوية تمول باريس ثلاثة أرباعها [2]

ورغم أن قانون 1883/02/12 م قد قرر تعليم اللغة العربية الى جانب اللغة الفرنسية في المدارس الابتدائية الخاصة بالجزائريين إلا أن إدارة الاحتلال عملت على عرقلة دخول اللغة العربية في المدارس بدعوى عدم وجود العدد الكافي من المعلمين باللغة العربية [3]

---

[1] - Charles R.A IBID , selon Tocqueville , œuvres 6 – complètes , t3 , paris , p 323

[2] - تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص 123

[3]- د يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية (1830- 1954) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983، ص : 47

و في نفس السنة (1883م) طبق التشريع المدرسي الجديد في الجزائر، فاستاء المستوطنون، وسيوخ البلديات من ذلك وأعلنوا رفضهم لبناء مدارس لما سموة "جماهير الصعاليك" من الأهالي و تعللوا بهاضة التكاليف، وبسعي الأهالي المتعلمين بعد ذلك لتحقيق الجزائر العربية [1]

كما منع فتح المدارس العربية وبخاصة منذ صدور قانون 18-10-1892 الذي يقضي بعدم فتح أية مدرسة إلا برخصة من السلطات الفرنسية، ولكي تسلم هذه الرخصة تم وضع عدة إجراءات منها :

- الاستعلام عن صاحب الطلب، أي معرفة كل ما يرتبط بحياته وانتماءاته
- قبول عدد محدود جدا من التلاميذ في هذه المدارس .و في حدود عام 1890 م لم يكن يرتاد المدراس الابتدائية من ابناء الأهالي سوى 1.9 % من مجموع الأطفال الذين هم في سن الدراسة وهذه النسبة لا تمثل سوى 10 آلاف طفل، وحاول مدير التعليم جان jean maire (1884-1908) أن يحس حالة التعليم بالنسبة للأهالي ولكن المستوطنين حاربوه، وحاربوا مشاريعه وسياسته، فاستقال بعد أن فرضوا عليه تحويل المدارس التي أنشاؤها الى ملحقات أطلق عليها اسم " مدراس ملاجئ " .

و كان عدد التلاميذ الجزائريين عند استقالته عام 1908 / قد وصل إلى 33.397 طفلا وذلك يمثل نسبة حوالي 4.3 %، في عام 1914 ارتفعت هذه النسبة الى 5 % وبلغ عدد التلاميذ الى رقم 47263 طفلا من بين 800 طفلا في سن الدراسة، وارتفع هذا العدد الى 60.644 طفلا عام 1922، ومن بين 900 طفلا – وكانت النسبة 6 % ولم يكن في المرحلة الثانوية سوى 84 تلميذا أهليا قبل عام 1900 و150 قبل 1914 وتخرج من جامعة الجزائر هذا العام 1914 م 34 طالبا يحملون الباكالوريا و12 طالبا مجازا .

[1]- شارل ر أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصر ... ص 112-113

ب – الصحافة :

استطاع بعض الجزائريين أن يحصل على نصيب من التعليم خلال العهد الاستعماري، فقام بعضهم بإصدار صحافة ناطقة بالعربية ذات ميول دينية ووطنية متماشية مع مصالح السكان الجزائريين المسلمين، فكان رد السلطات الفرنسية هو متابعة هذه الصحافة بالتضييق أو قدور سنة 1913 باللغة العربية، ونظرا للتهم التي وجهت إليه ومنها حملته الواسعة ضد تجنيد المسلمين الجزائريين في الجيش الفرنسي... فقد تم توقيف نشاطه الصحفية ومن ثم نفيه خارج الجزائر... وبعد نهاية نفيه ورجوعه إلى الجرائر سنة 1920م أصدر بالاشتراك مع محمد بن بكير، جريدة "الصديق" وكانا كلاهما يدعوان إلى الإصلاح الديني ونشر العلم والمعرفة وكذا كان الحال بالنسبة للصحف التي أصدرت الشيخ بن باديس رحمه الله المنتقد بعد ح.ع الولي وكالشهاب سنة 1925 م، .... الخ التي تعرضت إلى التوقيف نظرا لأنها كانت شديدة الانتقاد لإدارة الاحتلال وعملاءها، ثم لم كانت تنشره من مبادئ مخالفة للتوجه الاستعماري [1]

ج- نهب الكتب والمخطوطات الجزائرية :

في الوقت الذي كان التوسع العسكري على أشده في مختلف جهات الوطن الجزائري، كان الفرنسيون من مدنيين وعسكريين يستولون على ما تحتوي المكتبات العامة والخاصة في المساجد والزوايا والدور، وقد لقيت مكتبة الأمير المصير نفسه بعد سقوط عاصمته المتنقلة " الزمالة " سنة 1843، وتلت هذه العملية، عمليات نهب وسطو على مختلف المخطوطات في مختلف المجالات، وكان الكثير من الفرنسيين من صحفيين وعسكريين أو هواة أو غيرهم يتنقلون بين المدن والقرى وفي المؤسسات الثقافية يجمعون

[1]- شارل ر.أ، نفس المرجع السابق، ص ص : 113-114

هذه الكنوز الثمينة بطريقة أو بأخرى لدراستها أو بيعها لدور الوثائق والمخطوطات في فرنسا نفسها أو غيرها من البلاد الأوربية [1].

2- إنشاء مدارس فرنسية :

ورغم أن الاستعمار كان في أواخر القرن 19 مشغولا بحروب الاحتلال، ومواجهة المقاومات الوطنية، إلا أنه لم يغفل عن تأسيس مدارس فرنسية انشر وتشجيع اللغة الفرنسية، ومقاومة الثقافة القومية العربية باعتبارها من أهم العوامل التي تساعد على إحكام البلاد وإخضاع أهلها .

و مند بداية القرن العشرين أخذت الإدارة الاستعمارية تهتم أكثر بمقاومة تعلم اللغة العربية والتضييق على أصحابها والراغبين في تعلمها بواسطة إصدار قوانين وتشريعات غربية وخطيرة .

ففي يوم 1904/12/24 م أصدر الحاكم العام الفرنسي قرارا يقضي بعدم السماح لأي معلم جزائري ان يفتح مدرسة العربية دون الحصول على رخصة من عامل العمالة أو الضباط العسكريين في المناطق الخاضعة للحكم العسكري، ويشترط هذا القرار على من منحت له الرخصة أن يخضع للشروط التالية :

1- أن يقصر تعليمه على تحفيظ القران الكريم فقط دون غيره .

2- أن لا يقوم بشرح آياته وخاصة التي تتحدث هم الجهاد

3- أن لا يقوم بتدريس تاريخ الجزائر وجغرافية العالم العربي والإسلامي

4- أن يكون مخلصا للإدارة الاستعمارية ويخضع لأوامرها مهما كان شأنها

5- يحضر على هذه المدارس بعد الإذن بفتحها، أن تستقبل الأولاد الذين هم في سن الدراسة أثناء ساعات التعليم في المدارس الفرنسية حتى ولو كان ذلك في القرى التي تبعد عنها بأكثر من ثلاث كيلومترات [2]

[1] د-يحي بوعزيز، سياسة النشاط الاستعماري ... ص ص : 65-66

[2]

و في 1938/063/21 أصدر وزير المعارف الفرنسي قرارا ينص على اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، ويمنع تعليمها تبعا لذلك في المدارس .

و في 1945/07/22 م أصدرت السلطات الاستعمارية قرارا يفرض على كل معلمي اللغة العربية، معرفة الغة الفرنسية، كشرط أساسي لتوظيفهم في المدارس، واستهدفت من هذا القرار القضاء على الجهاز العربي وتحطيم كيانه، لأنها تعلم أن معظم أولئك المعلمين لا يحسنون الفرنسية أصلا [1]

و عرف الفرنسيون أن تعليم لغتهم لأبناء الجزائريين هو السبيل السهل للسيطرة عليهم، لهذا دعا الكثير من عسكريهم ومدنييهم الى الاهتمام بتعليم الأهالي اللغة الفرنسية، ومن أشهر هؤلاء نجد الجنرال بيجو الذي كان يرفع شعار: السيف والمحراث والقلم، وكان الدوق دومال هو أيضا من المطالبيين بهذا، حيث يقول : إن فتح مدرسة في وسط الأهالي يعد أفضل من فيلق عسكري لتهدئة البلاد، لهذا قاموا بفتح مدارس لتعليم اللغة الفرنسية بهدف القضاء على ما يسمونه بالتعصب الديني، وغرس الوطنية الفرنسية في أذهان الناشئة، التألف مع الأوربيين وكسب الأجيال الصاعدة الى جانبهم ليخدموا مصالحهم بين مواطنين لم يكن هدفهم نشر التعليم لترقية المجتمع الجزائري، بل كان التعليم بسيطا أوليا، كي لا ينافسهم هؤلاء أو يعرضوا وجودهم للخطر، أي أنه كان في حدود ضيقة للغاية، حتي يبقي الجزائريون أسرى الجهل والأمية، كي يمكن استغلالهم على أوسع نطاق ممكن [2] .

في هذه المدارس يتعلم الطفل اللغة الفرنسية وقواعدها والتاريخ الفرنسي والحضارة الأوربية فينشأ محبا لهان يعتبر نفسه جزءا منها " Nos ancétres les gaulois" ولكن لم يكن يسمح لهؤلاء بإكمال تعليمهم، كما أن الكثير منهم كان يضطر الى ترك المدرسة بسبب الفقر الذي كانت تعيشه الأسر

[1]- تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية ... ص 98

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998 ـ ص 375 .

الجزائرية ، وإذا كان التعليم الابتدائي إجباريا على أبناء الأوربيين فإنه ليس كذلك بالنسبة لأبناء الجزائريين .

و قد تم فعلا تكوين فئة من الجزائريين، خدموا في المؤسسات الرسمية الفرنسية كمترجمين وقضاء وكتاب إداريين بسطاء وغير ذلك .

و في منتصف القرن التاسع عشر أنشئت مدارس إسلامية (شرعية)، ليس فيها من العربية إلا القشور، بهدف تكوين طوائف من الموظفين الدينيين في محاولة لمنع التلاميذ من الذهاب إلى الجامعات الإسلامية في الخارج، كالزيتونة والقرويين والأزهر، وقد وضعت هذه المدارس تحت إشراف ضباط عسكريين يخضعون للحاكم العام، لقد كانت هذه المدارس وسيلة أخرى لتجنيد الجزائريين إلى جانب الإدارة الفرنسية ليكونوا مطية في تولى الوظائف القضائية والدينية .... وقد أثمرت الجهود فأخذ الفرنسيون يعينون، منذ منتصف الخمسينيات، من خريجي المدارس التي أنشئوها [1].

و قد تتبع المثقفون الفرنسيون أعمال هذه المدراس، ليعرفوا مدى نجاحها في تحقيق الأهداف المسطرة، وانتقد بعض المستشرفين النتائج المحصل عليها، ورأوا أنه قد ارتكبت اخطاء لابد من إعادة النظر فيها، ومراجعة البرامج، وقد تم إصلاح التعليم فيها عدة مرات ليقوم بالدور المنوط به أحسن قيام [2]

كما اهتمت الكنيسة بالتعليم في الجزائر منذ سنة 1838 م، وفتحت مدارس ابتدائية تحت سلطتها، وفي عقد الستينيات وبخاصة بعد كارثة المجاعة التي أصابت الحرث والنسل، قام الكاردينال " لافيجيري " بتأسيس جمعية ' الآباء البيض ' التي انتشرت في شمالي إفريقيا، تفتح المدارس والمصحات ومراكز التكوين المهني للتوغل بين السكان، في محاولة لتقريبهم من

[1]- كان التلميذ يدرس فيها ثلاث سنوات، وفي 1944 تحولت الى ثانويات (متوسطة وثانوية)، وفي سنة 1951 اطلق ليها إسم : – franco musulmans

[2]- ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 3. .... ص 375

النصرانية إن لم تستطيع تنصيرهم كليا، وقد جذبت إليها أعدادا هامة من الأطفال في المدارس واهتمت بالبنات في مراكز التكوين المهني، وقدمت الدواء للمرضي والمشردين والعجزة تحت ستار المساعدة والأعمال الخيرية، بينما كان الهدف تنصير الجزائريين بالتعليم ذي البرنامج التنصيري الصريح، أو برنامج لهدم العقيدة والأخلاق الإسلامية، وبث التقديس للأمة الفاتحة، ولحضارته وثقافتها [1]

و قد اشتركت في هذه الأعمال مدارس المبشرين والمدارس العمومية الأخرى على السواء لتفكيك تماسك الأسرة الجزائرية عن طريق تربية دينية تخالف تعاليم أسرهم المتوارثة وقد كان هناك تيار معارض لتعليم الأهالي وبخاصة من قبل المعمرين في الجزائر وفي فرنسا نفسها .

و كان المعمرون أكثر تشددا في هذا المجال، إذ أنهم كانوا يرون أن تعليم الجزائريين يعني نشر الوعي بينهم ليخرجوا للمطالبة بحقوقهم كمواطنين، فينافسون الأوربيين ويشاركونهم السلطة والنفوذ و بدلا من ذلك طالبوا بتعليم أبناء الفلاحين تعليما فلاحيا Ecoles Fermes لخدمة مصالحهم ومصالح المستعمرة لتكوين يد عاملة محلية رخيصة لمواجهة اليد العاملة الأوربية، التي تطلب أجورا أعلى، وإبقاء الجزائريين في الأرياف بعيدا عن الحواضر، حتى لا ينافسوا الأوربيين في الوظائف إذا ما تابعوا التعليم العادي [2]

و عندما جهز الفرنسيون الحملة العسكرية على الجزائر سنة 1830 أفهموا بقية الأوربيين أنهم ذاهبون للقضاء على القرصنة الهجمية، التي هي النقيض للتحضر والتمدن .

[1]- علال الفاسي، نشاط المبشرين ودوره الاستعماري، محاضرة في ملتقى التعرف على الفكر الاسلامي، تيزي وزو 1973

[2]- أ.سعد الله، المرجع السابق، ص : 280

و قد ادعى الفرنسيون الشعب الجزائري بالقضاء على النظام الدكتاتوري التركي واستبداله بنظام ديمقراطي عادل يسمح للناس بالدخول الى عالم أكثر عدلا وتفتحا وتحتضرا .

لقد ادعى الفرنسيون أن استعمالهم للتعليم هو من أجل إخراج الأهالي من ظلمات الجهل والبربرية الى نور العلم والمدنية، وتحبيب الحضارة الغربية لدى الناشئة .

و أخذ المعلم الفرنسي دور الريادة في هذا المجال، لإبراز مزايا الحضارة الغربية وتوجيه الجيل الجديد للامتثال بالأوربيين، والتنصل من تراثهم الذي ينتمي في نظرهم إلى أمة متعصبة، وقد اتضح للفرنسيين أن التعليم هو السبيل الأول للتآلف معهم، وبواسطة هذا التعليم يمكن " تكوين عناصر قيادية، تعمل على تثبيت وجودهم والعمل تحت سلطتهم ... تقوم مقامهم ليكون الجزائريون اتباعا وعبيدا للأسياد، يحترمون الحضارة الأوربية ويتبعونها [1].

و هاهو أحد الفرنسيين Fellman يتساءل عن السبب من إنشاء هذه المدارس من قبل السلطات الفرنسية في الجزائر، ويجيب عن ذلك فيقول : إن الغاية ليست لتكوين موظف ين مختصين ... وليس لتكوين مدرسين للتعليم العمومي، كما أنه ليس من أجل تعليم العربية للفرنسيين، ولا من أجل تعليم الفرنسية للعرب، لماذا إذن كل هذه الجهود وهذه العناية ؟ إنها من أجل تكوين رجال يكون لهم تأثير على مواطنيهم، يساعدوننا على تحويل المجتمع العربي التعليمية، الهادف من جهة الى الإدماج الثقافي، زمن جهة ثانية الى تعليم الوطنية الفرنسية وغرسها، قد ساعد على تعميم وتقوية السيطرة الاستعمارية الفرنسية، فالمدرسة الفرنسية تبحث في هذا الإتجاه الى اقناع الجزائريين بكل الوسائل بعظمة وتفوق فرنسا، خوفا من تحول التيار الوطني ضد الاستعمار الفرنسي [2]

---

[1]- اسماعيل العربي، الدراسات العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص : 10-11

[2] -yvonne Turin , Affrontements culturels dans l'algérie coloniale , ENAL , A lger 1971 P 73

و في إطار سياسة فرق تسد، ومن أجل الوصول الى نتائج أسرع، ركز الفرنسيون جهودهم على منطقة القبائل، وظهرت كتابات عديدة منذ السنوات الأولى للاحتلال، مؤداها ان سكان هذه المنطقة هم أقرب الى الأوربيين منهم الى العرب، وعليه يجب فرنستهم وإعادتهم الى النصرانية التي كانت سائدة بينهم خلال العهد الرماني [1]

و في 12 فيفري 1873 اقترح الضابط العسكري قائد دائرة الأربعاء ناث إيراثن في تقريره للحاكم العام دي قيدون de Gueydon مخططا لفرنسة المنطقة، يتضمن إلغاء المدارس العربية الفرنسية " نهائيا، وخلق مدارس بلدية فرنسية، واستعمال كل الوسائل لإبعاد تأثير الزوايا، من أجل جعل المنطقة تحت السلطة الكاملة للفرنسيين [2]

و قد منح الحاكم العام هذا كل التسهيلات للكاردينال لافيجري، من أجل فتح مدارس حرة في هذه المنطقة، وهكذا أنشأ الاباء البيض مدارس عديدة في المنطقة، ودعا بعض القساوسة الحاكم العام إلى أن تتولى الحكومة العامة نفسها الإشراف على هذه المدارس .

و بعد شد ورد فيمن يتكفل بهذه المدارس، هل هي البلديات أم الحكومة العامة أو الوزارة، صدور مرسوم 9 نوفمبر 1881، الذي قرر إنشاء ثمان مدارس في منطقة القبائل تابعة لوزراة التعليم الفرنسية [3]

و قد تخرج فعلا من هذه المدارس المختلفة جزائريون، مختصون في الصحافة والتعليم والترجمة والقضاء والإمامة وغيرها، أي أن تلك الدراسات لم يكن التعليم بها تتقيفا بل لتحضير بعض الإداريين والمترجمين في الإدارة الجزائرية قصد التعجيل بالاندماج لقد كان الإدماج معناه جعل الجزائريين متساوين مع الأوربيين في كل المجالات والتمتع بحق التعليم وتولى الوظائف، بالطرق التي يخولها القانون

[1] - chaeles R.A IBID,P 269-270

[2] - المرجع نفسه، ص : 332

[3] - المرجع نفسه، ص : 335

الفرنسي أصلا، وأن يكون إقليم الجزائر جزء من الأراضي الفرنسية، منقسم الى مديريات ومقاطعات، بالتقسيم نفسه الذي تخضع له الأراضي الفرنسية .

و نظرا لمعارضة المعمرين، وبعض الساسة الفرنسيين، لم تطبق سياسة الدمج الكاملة بين الجزائريين والفرنسيين، بل طبقت عليهم سياسة عنصرية، كان الهدف منها القضاء على العنصر الأهلي، أو طرده نحو الأراضي الفقيرة والصحراوية لأنه منحط ومتخلف كما طبقت عليه سياسة سميت بقانون الأهالي الذي صدر بعد اندلاع مقاومة 1871 ووسع مجاله بعد اندلاع مقاومة 1881 طبقا لقانون 6/28 الذي أعقبه إنشاء المحاكم الردعية Tribunaux répressives بناء على مرسوم 29-3-1902 وقد أدت السياسة الفرنسية الى تغيير أسماء بعض المدن والقرى، الى جانب تسمية الشوارع بأسماء الفرنسيين كان لهم البون الكبير في إخضاع الجزائر واحتلالها، كما أن السجل المدني الذي انشئ سنة 1882 افضي الى تزويد الجزائريين بألقاب جديدة لزمتهم أخر الأمر [1]

نتائج هذه السياسة :

استطاعت المدرسة الفرنسية عن طريق سياستها التعليمية التي شوهت تاريخ الجزائر، وقدمت التاريخ الفرنسي على أنه التاريخ الوطني، أن تكون فئة من الجزائريين انفصلت عن شعبها، وتنكرت لأمتها، واندمجت في الحضارة الأوربية، وتجنست بالجنسية الفرنسية، ودافعت عنها دفاعا مستميتا، وبخاصة منذ مطلع القرن العشرين .

ورغم هذا فإن هذه الفئة التي دعيت ب " النخبة " لم تجد مكانها بين الفرنسيين، لأن هؤلاء لم يكونوا ينظرون إليهم كفرنسيين حقيقين، بل كرعايا أو مواطنين من الدرجة الثانية، ولهذا قام هؤلاء يطالبون بالمساواة، لأنهم كانوا يؤمنون " بالتقارب مع الفرنسيين والاندماج مع الجزائريين، وقد مثل هذا التيار جيل من الشباب منهم : أحمد بن بريهمات ومجدوب بن قلفاط وربيع الزناتي وسعيد الفاسي

[1]- أ.سعد الله ـ، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر 1983 ص 63

ومحمد صوالح وعباس بن حمانة وأحمد بوضربة وبلقاسم بن تهامي والشريف بن حبيلس ومحمد الصالح بن جلول وفرحات عباس ونحوهم ممن أمنوا بالأبوة الفرنسية [1]

أما بقية أفراد الشعب الجزائري وأغلبية أطفاله، فإن فشل الفرنسيين كان واضحا، رغم الجهود التي بذلها المعلمون في مختلف الأوساط، بدعم من ضباط المكاتب العربية، الذين حاولوا التقرب من السكان، فوزعوا الملابس على التلاميذ الفقراء، ووفروا حاجيات المدارس المختلفة، وأعطوا الجوائز للمتفوقين منهم، وأخذوهم الى المسارح للترويح عن النفس والتأثير عليهم .

لقد كانت الاستجابة جد هزيلة بين الجزائرين، رغم كل المغريات، ولم يخف أحد لجزائريين تأسفه أمام أحد الموظفين الفرنسيين Masquerdy عن تلك المدارس التي كانت تعلم سيدي خليل [2] لأن الجزائريين اعتبروا ذهاب أبنائهم الى تلك المدارس مسخا لشخصيتهم العربية الإسلامية، وأن ذلك سيؤدي بأبنائهم الى المروق عن حوزة الذين، وامتزاجا بالفرنسيين " الكفار" وبأخلاقهم، كما أن قلة الوسائل المادية للجزائريين، جعلتهم ينقطعون أو لا يلتحقون أصلا بهذه المدارس من جهة أخرى، ثم إن الفرنسيين أنفسهم لم يكن من أهدافهم أن يحصل التلميذ الجزائري على تعليم كاف شاف لمستقبله .

و أما الذين التحقوا بهذه المدراس فلم ينقطعوا عن متابعة دروس حفظ القران في الكتاتيب المنتشرة في كل مكان، وتحت كل الظروف، حيث كانوا يحاولون التوفيق بين المدرسة الرسمية الفرنسية من جهة، وبين مدرسة تحفيظ القران من جهة أخرى، فيذهبون الى المدرسة القرآنية، في الصباح الباكر، ويعودون إلى بيوتهم قبل الساعة الثامنة لتناول فطور الصباح، ثم يتجهون الى المدرسة الرسمية

[1]-شارل .ر .أجيرون , تاريخ الجزائر المعاصرة ' ص 106

[2]- أحمد مريوش، القضايا الوطنية في اهتمامات الأنتلجانسيا الجزائرية مابين 4876 -1927، مجلة، حولية التاريخ، العدد الثاني، 2002

الفرنسية التي يقضون بها طول النهار، وقد يعودون ثانية الى المدرسة القرانية مساء، أما أيام العطل المدرسية فيقضونه في مدارس حفظ القران [1]

لقد تحمل الجزائريون نتيجة لذلك كل العواقب المتمثلة في الطرد من أراضيهم، أو الخسارة في أموالهم، لقد تقوقعوا واحتضنوا تراثهم المتمثل أساسا في اللغة العربية والدين الإسلامي، وشدروا عليها بالنواجذ، إلى أن بدأت بوادر النهضة الثقافية الى الوجود مع مطلع القرن العشرين، وبرز علماء الجزائريون، تزعموا هذه الحركة وكانوا النواة التي ستتفتح في شكل جميعة العلماء المسلمين الجزائريين .

و هكذا لم يستطيع الاستعمار الفرنسي القضاء الى الثقافة الوطنية للشعب الجزائري " لأنها لم تكن مجرد بقايا وأثار لبني ثقافية قديمة شعبية، بل كانت ولا تزال ثقافة عالية، حية لغة وأدبا ودينا وفكرا، متغلغلة في العقل والشعور، في الفكر والسلوك " تدافع عن نفسها بكل ما أوتي حاملوها من صبر وجلد، من خلال المقاومات الشعبية المسلحة أولا، ثم الحركة الوطنية لاحقا، وما واكب ذلك من حفاظ على أهم مقومات الشعب الجزائري وهي اللغة العربية والدين الإسلامي [2].

[1]– محمد عبد الجابري، إشكالية الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1990 ص 3

[2] عماربوحوش، العمال الجزائريون في فرنسا، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 160.

المراجع المعتمدة

باللغة العربية :

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي : ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985 .

2 - عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، (1830 – 1900) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985 .

3- شارل زوبير أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، (1830- 1900)، ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر 1982.

4- تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1970 .

5 - تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981. .

6- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998 ..

7- علال الفاسي، نشاط المبشرين ودوره الاستعماري، محاضرة في ملتقى التعرف على الفكر الاسلامي، تيزي وزو 1973.

8- عبد القادر حلوش، الكولون الفرنسيون والتعليم الفلاحي في الجزائر مجلة عصور، العدد 2، ديسمبر 2002 .

9- عبد القادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر والتعليم في الجزائر، شركة دار الأمة الجزائر 1999، ص 64

10 - د يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية (1830- 1954) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983 .

11- اسماعيل العربي، الدراسات العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986 .

12- أ.سعد الله الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1983 .

13- أحمد مريوش، القضايا الوطنية في اهتمامات الأنتلجانسيا الجزائرية مابين 4876 -1927، مجلة، حولية التاريخ، العدد الثاني، 2002.

14- محمد عبد الجابري، إشكالية الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1990

المراجع باللغة الفرنسية

1 -Charles (R.A) Les Algériens Musulmans et la France , P.U de France : paris ,1968 .

2-yvonne turin , Affrontements culturels dans l’algérie coloniale , ENAL , A lger 1971 .